فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

٣١ – تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

تعقيب المؤلف على فلسفة نيتشه

للأستاذ خليل هنداوى

تتمـــــة

أما النظر الى نيتشه من حيث الوجهة الأخلاقية فقد لامه النقاد على غرائزه القاسية وأنانيته الطاغية ، وقسوته البالغة على الضعفاء . على أن له بعض آراء لو لم يسىء الناس فهمها لكانت الى نتيجة أخلاقية حسنة ؛ فليس يكفى المرء أن يكون فوضوياً هداماً طارحاً عن ظهره التقاليد ليحيا محققاً مذهب نيتشه ، وليس نيتشه رفيق أولئك الذين يعبثون بالسوربان . وهذا نبيه زرادشت كان يطلب الى الذين يرغبون اتباعه أن ينفذوا مذهبه بقسوة وشدة

« هل أنت شريعة قوية ؟ هل أنت شريعة جديدة ؟

هل أنت حركة أولى ؟ هل أنت دولاب يدور حول نفسه ؟

وأسفاه ! ما أكثر أولئك الذين يريدهم تعطشهم إلى الصعود ! وأولئك لطامعين الذين يضطربون بيأس ! أرنى أنك لست بواحد من هؤلاء الظامئين ولا الطامعين .

وأسفاه ! هنالك كثير من الأفكار العظيمة التى ليس شأنها إلا شأن النسمة تهب ثم تتلاشى

إنك تقول إنك حر ، ولكنى أريد أن أعرف الفكرة التى تسيطر عليك ، لا النير الذى رحت تهزه

هل أنت حقاً من أولئك الذين يجدر بهم أن يهزوا نيراً ؟ إن منهم من طرحوا كل ما منحتهم بعض القيم ، بطرحهم ثوب العبودية والارهاق حيث كانوا يعبثون . »

ونيتشه ذاته يعلن بأن مذهبه لا يحمله إلا إلى طائفة مختارة تستطيع حمله ، والقيام بأعبائه ؛ وأما الجماعات الأخرى فليس عليها إلا الاذعان والطاعة والحياة بإعان . فلا نجدر بنا والحالة هذه أن نسفّه آراءه بحجة أن بعض الضعفاء العاجزين المتنفخة نفوسهم زهواً وكبراً قد أخذوا ببعض تعاليمه واقتبسوا نتفاً من مذهبه ليحققوا مطامعهم وليشبعوا جوع أنفسهم وأمانيهم وليسعوا إلى هدف العظمة . إن نيتشه هو ذاتى قبل كل شىء ، ويكفى اعتقاده هذا أن يهيج الناس عليه . فالانسان الحاضر هو « ذاتى وغير ذاتى » فى وقت معاً . يرى فى الحالة الأولى نفع نفسه وفى الحالة الثانية نفع غيره ، ويتحرى عن سعادتهم كما يتحرى عن سعادته . على أن النزاع بين هاتين الحالتين هو نزاع عنيف ، وقد تقوى فى الانسان حالة مهما دون أخرى على حسب ميوله القلقة التى تميل به إما إلى ذاته وإما إلى المجتمع . فبعضهم تغلب فيه الذاتية على غيرها ، فيضحى مصالح الغير فى سبيل مصلحته ؛ وبعضهم يضحى بمصلحته عاملاً على صيانة مصالح الغير . أما نيتشه فهو من القائلين « بالذاتية » الذين يحبون ذواتهم ؛ ومذهب أهل حضارة العصر إنما يتجلى فى اعتناق مذهب المحبة الشاملة ؛ وهذا الاختلاف بين نيتشه وبين معاصريه يكفى لأن يثير فى خصومه عداوة عميقة وخصومة عنيفة على هذا الذى لا يرى رأيهم فى اتخاذ محبة الغير مثلاً أعلى

على أن هاتين الحالتين ليستا من الحالات المعينة التى لا يتخطاها الانسان ولا يتعداها ، إذ لست أرى أحداً مال بكليته إلى حالة وقطع كل اتصاله بالأخرى . فهنالك درجات متفاوتة فى الغرائز ، وهذه الدرجات قد تتغير وتتطور بحسب الزمن والعصر

وهذا كقول أبى بكر بن عمار :

لئن كان ذنبى للزمان محتى فذلك شىء لست منه أتوب

وقول عباس بن الأحنف :

إن كان ذنبى فى الزيارة فاعلمى أنى على كسب الذنوب مجاهد

(يتبع)

عبد الرحمن البرقوقى

منشئ البيان ورئيس قلم المراجعة بمجلس النواب

تصويب

جاء فى السطر الثالث عشر من الصفحة نمرة ٢٩٤ بالمجلد الماضى بالعمود الثانى مانصه : « وأمعَدُ من هذا فى باب التخبط والتخليط أن خطبة الذخيرة الحقيقية ... الخ »

والصواب : « وأفقد من هذا فى باب التخبط والتخليط أن الخطبة المثبتة فى النسخ الموجودة من الذخيرة هى خطبة مفتعلة ؛ أما خطبة الذخيرة الحقيقية فهى غير هذه الخطبة كما سيمر بك »

البرقوقى

والمحيط . على أننا سنحكم على فلسفة نيتشه الآن حكما عقلياً واضحاً

إن فلسفة نيتشه هي مثال من أجل الأمثـــلة الذاتية الارستقراطية ؛ مثال جميل حي منطق ، يحتوي على هدى لكل من يريدون أن يكوّنوا حياتهم ويجعلوا منها مثلاً واحداً يتحدون معه ، كما هو الأمر في فلسفة « تولستوي » المناقضة لفلسفة نيتشه . على أن الحل الذي أعطاه نيتشه للمسألة الأخلاقيـة يتراءى لنا أن احتماله شديد على الأنفس ، في الناحية التفكيرية والناحية العملية ، وإن تنفيذ مذهب « السوبرمان » ليفتقر إلى جهود قل أن توجد ؛ ونيتشه ذاته يعلن بأن أمثال هؤلاء الأفراد الذين يجد فيهم البقرية لم يكونوا إلا وليدي المخيلة والخيال

وهكذا يتراءى لنا أن نيتشـه لم يخلق ليكون زعيم مدرسة فلسفية حقيقية . إنه سيبقى وحيداً فريداً ، أمة وحده بين الناس ، كما كان في حالة تفكيره وتأمله ؛ على أن مذهبـه تارك وراءه تأثيراً كبيراً . ينمي في روح الفرد وروح الشعب « الأفكار الذاتية » ، وهذا التأثير يتبع خيره وشره الجبلة الخلقية التي تلتصق بالأفراد والشعوب . فهو قد يعمل على تهديم طبائع طغت فيها الأنانية على كل شيء حتى جاوزت حدها ؛ وقد يعمل على رفع بعض الطبائع ، يدرأ عنها كل آفة ويحميها من كل خطر من الأخلاق والديموقراطية والزهد

يبدو لي أن عمل نيتشه له أثر قوي في بيئة كبيئتنا ، ولا ريب في ذلك ، فإن ما أراه في مظاهرنا الاجتماعية لا يدل على فيض في الحماسة المادية والخلقية . قليل من المفكرين الذين هم في مستواه يعرفون أن يسوقوا الانسان إلى معرفة نفسه والوقوف إزاءها مجرداً ؛ وقليل من أصحاب جمهورية الفضيلة من يمزقون — في وضح النهار — هذه الأغشية الرقيقة والأكاذيب الخفيفة التي تستر بها النفس ضعفها وجبنها وذلها وعجزها ؛ وقليلون من علماء النفس من وضح وأبان وأحسن البيان عن الحقيقة الذليلة التي ترتدي هـذه الأثواب المزركشة : أثواب الشفقة ومحبة القريب والزهد

إن نيتشه كالطبيب الصارم الذي لا تدخل قلبه الشفقة ؛ والعلاج الذي يحمله الى مرضاه ، علاج قاس خطر استعماله ، ولـكنه علاج يخلق العزم والقوة . إنه لا يعزى من يأتيه شاكياً ، ولـكنه يترك الشاكين تســـيل الدماء من جراحهم ليجعلهم أكثر قسوة وأشد احتمالاً للألم . فهو إما أن يشفي مرضاه شفاء صحيحاً أو يقتلهم ؛ قد يخشاه الناس للمرة الأولى ويفرون من مباضعه ، ويلقونه باحتراس ووجل ، يتساءلون : أليس هذا الانسان شريراً جلاداً ؟ يفرون من طريقه ويختلفون إلى أطبائهم خفيفة أناملهم ، ليّنة كلماتهم ، حلوة علاجاتهم ، خالية تعاليمهم من الشدة والصرامة ، ولـكن نيتشه يلوذ به فريق من المخلصين له ولأنفسهم ، يهوون صرامته ، ويحبون استقامته وخلقه كله وفي اعتقادي أن هؤلاء لم يكونوا مخدوعين بانجذابهم به وإخلاصهم له ، وقد علموا أنه — ليس عن صرامة قلبه ولا معرفته للألم معرفة خاطئة — قد غـدا صارماً قاسياً على الانسانية المتألمة ؛ وحياته كلها مشحونة بالحوادث البالغة والمصائب الـكبيرة ؛ وحظه السيء الفاجع قضى عليه بأن يكون صادقاً عن الاشفاق على ضعف الانسانية وفاقتها . إنهم ليقفون بخشوع وجلال إزاء المفكر الجبار الذي لم يخضع للذل ولم يلن الوجود ، برغم مرضه العضال . وظل على غبطته ورضاه في الحالة التي كان يصارع فيها الموت والجنون دون أن ينفذ اليه الوهن والضعف ، متخذاً أنشودته المؤثرة في تمجيد الحياة الفنية الفياضة المخصبة ، متناضلاً حتى النهاية — الألم الذي غلب على عقله ، ولم يستطع أن يقهر إرادته الواعية

لماذا أكرهت نيتشه ؟ وما الفائدة التي يجنيها العقل العربي منه ؟

حقاً إن بيني وبين نيتشه أسباباً لا أظن انقطاعها يسيراً وقد اختلفت اليه ليالي كثيرة وليس بيني وبين نبيه فاصل . أبا من روحي ويبشني من روحه . نتألم معاً من الحياة ونرقص لها ابتهاجاً . ولا أدري علة هذا الترابط ! ومن يستطيع أن يحفظ على التحقيق كل سبب يربط بينه وبين مفكر ما ؟ أليست هنالك أسباب مختلفة قد تتآلف وقد تتخالف ، فتمزج هذا المفكر مع عقلك وقلبك ، أولا تزيدك منه إلا نفوراً ؟ وما عسى يكون سر تعلق بنيتشه إلا سر تعلق بالحياة ؟ كانت الحياة عندي ظلمة حالكة فغمرها نيتشه بفجره . كانت الحياة شكاً مراً وقلقاً مستحوذاً عليّ فبدل شكي باياني ، وقلقي بعزيمة لا تتقلقل . كان سفيني مضطرباً في خوض لجج الحياة ، فهم يد الضلال بافتراسه فاستنقذه نيتشه وساقه الى منارة النجاة !

ذلك فضل نيتشه عليّ ، وأعظم بهذا الفضل ! وكيف يربو

لئك الذين لامونى على انكبابى على نيتشه أن أصدف عنه ؟ نى لواجد فيه علامة من العلامات الواضحة التى تنصبها الحياة ند لين عن مناهجها ؛ فنيتشه هو علامة فيض الحياة المتفجرة الارادة الصارمة . ولعل أولئك السقماء الذين أتوه فروا من باضعه العاسية وتدليه العنيفة لأنهم يريدون علاجاً يبعث فى عضائهم المشلولة الدفء والسكينة ، وهو إنما يريد أعضاء تبارك الحياة بالعزم والحركة إنه قد أحرق السلامات المخدرة للأوجاع قبل ن يقدموا . فان كنت صابراً على احتمال قسوته فتعال الى نيتشه

إن نيتشه ليس بمفتقر الى جثث — خالية من الاحساس — لحملها على ظهره ، وإنما هو يريد رفاقاً أحياء هدامين مثله ، قد دّرعوا الارادة وصافحوا الألم رفيقاً لا سيداً . يقتحمون مارداتهم وصراساتهم كل شىء كالسيل الجارف ؛ لا يصدهم عن غرضهم صاد ، ولا يقف سيرهم حاجز ؛ يثبون فوق القمم وثباً لا يزحفون زحفاً ؛ فى نفوسهم عقيدة تفيض حماسة وقوة ، يفرضونها على الزمان ولا يجد الزمان الى اضعافها سبيلا . هؤلاء الرفاق الأشداء يستطيعون أن يمشوا مع نيتشه ، ويمجدوا الحياة فى كل أدوارها ، ويحلقوا فوق آلام الحياة وأفراحها

إن كاتب « فلسفة نيتشه » بالفرنسية يرى فى اقتحام نيتشه لبلاده نعمة ، لأنه لا يرى فى مظاهرها الاجتماعية مايدل على فيض وحماسة فى الناحية المادية والخلقية . وإن نيتشه ليبعث هذا الفيض ويخلق هذه الحماسة فى الناحيتين . فاذا كانت فرنسا الحية تفتقر الى من يفيض على حياتها حياة ، فكيف بشعوبنا التى قتلها التخاذل بينها !

توجه أنى شئت ؛ فهل أنت واجد معى إلاّ قطعاناً هائمة على وجوهها ، ورعاة غافلين همهم صفو السمر ، وأواصر مقطوعة ، وتقاليد جامدة ، يتغنى بها القوم حين يريدون الرقص والغناء ، وشباباً مخشين تناسوا رجولتهم ، وأهملوا رسالتهم ؛ كأنما تلك الراحة الطويلة المريضة قد أورثت أعضاءنا الشلل ، فاذا وثبت فيها الحياة لم تقدر على الحركة . وادم بطرفك أنى شئت فانك واجد هذا الموت الاجتماعى وجمود الفكر

وكأنما لم يرض فينا رب الدهر حتى أعانه من أعاننا

فأصبح تفكيرنا رياء ، والتظاهر بالتقاليد رياء ، وهل كان الرياء إلا ثوباً من أثواب الضعف والعجز ترتديه أمة رضيت لنفسها أن تهوى بدلا من أن تصعد ، وإن اغفال علماء الاجتماع عندنا لهذه الظاهرة الخلقية إغفال فيه جناية لا تغتفر . يجلس مفكرنا فى جماعة فيفصل لفكره عشرين وجهاً ، يأتيهم بوجه ويُعرض عنهم بما تى . ويصلى أحدنا عشرين ركعة ، يمنح واحدة لله ، ويمنح الباقيات للناس ؛ وهكذا غلب الرياء علينا فى كل مظاهر تفكيرنا وتقاليدنا . وانى لأحسبنى يوماً يرسو فيه الرياء فى أنفسنا فيغدو متأصلاً فينا حتى يصبح علامة من العلامات الفارقة لهذه الأمة

هذه هى المظاهر التى غاظت نيتشه يوم أعلن الثورة على الضعف والرياء . وليت شعرى من سيغيظه الضعف والرياء فى مجتمعنا الحاضر ، فيعلن الثورة عليهما وعلى المرتدين أرديتهما !

إن العقل العربى عقل قوى بنشأته ، صادق بفطرته ، وهو لا يحتاج إلى من يبث فيه معنى القوة والصرامة لأنه قائم عليهما . ولكن جيلنا الحاضر اعتنق الفكرة العربية مجردة من معنى القوة والصرامة ؛ فتشوهت بذلك الرسالة وضاعت معالمها . إن المجتمع العربى يفتقر إلى من يرد عليه هذه الأمانة التى لا يعلم إلا الله سالبها . والمجتمع العربى بعدها غالب عليه الاضطراب والخزى والضلال . فمن يرد عليه أمانته ويعيد إليه صرامته ؟

كنتُ أتلو مواعظ — زرادشت — فأحس أن قوة جديدة أخذت تطغى على قلبى ، وأشعر باضطراب فى نفسى جعلنى أومن بأن الحياة لا يعسر عليها أن يخرج منها ألف حياة . ولم لا ! ؟ كنت أسير معه وهو يهدم خيالات الرياء ، ويضرب التقاليد بعضها ببعض ، فأطرب لشجاعته ، وأعجب بنفسى وأسألها : « هل كان فى استطاعتك أن تتأتى هذه الأرض لولا هذا النبى ؟ » ، ولكن طربى لم يكن طرباً خالصاً لأننى كنتُ أتمنى لمثل هذا النبى الهدام أن يقيم بيننا ليلة واحدة ، تنفذ عينه خلالها إلى قلوبنا الطافحة غشاً وخباً ، وقصورنا ومعابدنا المفعمة كذباً ورياء ، فينظف هذه القلوب ويدمر هذه القصور

أين أراك يا زرادشت المرب ؟ ومتى يكون الموعد ؟ فقد اصطلح على إيذائنا كل شىء حتى أنفسنا . تمشى الحياة بنا ونحن ذاهلون ، ويتباهى الغير برجولته الصارمة ونتباهى نحن بالتخنث ، ويستيقظ الفكر فى مواطنهم ونحن نضرب حوله السدود ونقيم له الحدود ، نفر من الألم لأنه يضنينا ، ونستجدى الفرح من غيرنا استجداء ؛ يتحرك كل شىء حولنا ونحن لا ترضينا الحركة ولا تستهوينا اليقظة . تقول بالانسانية ونشفق عليها ، وقاتلوها لا يملكون من « انسانيتهم » شيئاً . يحسون آلام غيرهم ولا يحسون آلامهم . يشدد غيرنا روح « الذاتية » عندهم ، ونحن نسعى إلى محوها ، كأننا نريد أن نمثل دور الشرق الأول يوم كان